أستميحكم عذراً هذا ما حدث،
خرج بدر وعمره 25 سنة من منزله الكائن في تل الهوى قرب مجلس الوزراء باحثاً عن الخبز، ولما طال غيابه بدأ القلق يتسرب الى قلب والديه، خاصة أنه ابنهما الوحيد. مرت الساعات متعاقبة بزمنها الطويل القاتل تحت سماع أصوات الانفجارات ودوي الرصاص الذي لا يتوقف. كاد قلب أم بدر ان ينفطر من شدة قلقها على ابنها الذي خرج منذ ثلاث ساعات ولم يعد. أصبحت أشبه ببندول الساعة، تتحرك يمنةً ويساراً، لا تنفك من فرك يديها بعضهما ببعض، فالدنيا حرب والغياب نذير شؤم والخروج من المنزل خطر ولم تكن منذ البداية موافقة على خروجه من المنزل. صاحت في وجه زوجها لم أعد قادرة على الانتظار أكثر من ذلك، سأخرج للبحث عن ولدي، لقد هدأ إطلاق النار قليلاً. أجابها زوجها؛ كيف ستخرجين؟ هل جننتِ الم تسمعي أصوات الطلقات التي كادت لا تتوقف؟! يبدو ان هناك اشتباكات عنيفة بالخارج، إنتظري حتى تهدأ تماماً.

لن أنتظر ومتي توقف القصف وسماع الطلقات والانفجارات!!
إنتظرني بالمنزل، لن اغيب طويلاً سأبحث في محيط البيت.

خرجت من البيت بخطي سريعة تتلفت بكل الاتجاهات، بالشوارع الخالية وكأن منطقة تل الهوى قد تحولت لمدينة أشباح، وهي التي كانت قبل شهور قليلة تضج بالحياة والحركة بوصفها من ارقي وأجمل مناطق قطاع غزة. ظلت تسير وحيدة بالشوارع تتمني أن تري أي شخص لتسأله عن ولدها بدر. ظلت تهرول في الطرقات، مرة جهة الشمال ومرة جهة الجنوب لا تسمع سوى صوت نباح الكلاب الآتي من بعيد ولسان حالها يقول كيف اختفى الناس بهذه السرعة، لقد ماتت المدينة. نعم للمدينة روح وحينما تخرج الروح تموت المُدن والإنسان هو روح المدينة وحال مغادرته تموت المُدن.
أجابت نفسها. هذا وقت فلسفتك الفارغة لابد لي ان اذهب باتجاه أصوات الكلاب فلا بد أنها تعوي على شيء ما، بشر ربما أو حيوان، أي شيء أستأنس به برغم خوفي الدائم من الكلاب، ولكن لابد لي ان أذهب باتجاه الصوت علّني أجد ما يدل على حياة بالمكان.

أخذت تتقدم بخوف تجاه المكان، تحديداً بالقرب من جامعة الأقصى، وهناك شاهدت من بعيد ثلاث جثث ملقاة على الأرض والكلاب لا تتوقف عن نهشها.. اقتربت قليلاً ثم صرخت بأعلى صوتها؛ صوت قد يكون أعلى من صوت الصواريخ، غطّى كل منطقة تل الهوا، حطم الصمت المخيم على المكان.. آآه يمه، آه يمه! تحولت لكائن آخر إنسان متوحش أكثر من الكلاب المفترسة. حتي الكلاب ارتعبت وجفلت لبرهة من شدة الصوت والغضب والحزن والقهر واضف ما تشاء من مشاعر محملة بهذا الصوت. ركضت دون وعي تجاه جثة ابنها بدر التي كانت الكلاب تنهش لحمه، حاولت ان تسحبه بعيداً ولكن الكلاب هاجمتها دافعت عن نفسها ثم ابتعدت قليلاً، بحثت في أرجاء المكان عن عصا، فوجدتها وحملتها استعدادا لخوض المعركة، وفجأة خلعت منديلها وقطعته نصفين وربطتهما ببعضهما ثم خلعت بنطالها من تحت العباءة وربطت البنطال بالمنديل وصنعت منهما حبلاً وعادت لابنها متحدية الكلاب مرة أُخرى، وظلت تهش بالعصا عليهم مرة، ومرة تربط قدم ابنها بالمنديل، ثم أخذت تسحبه بعيداً عن توحش الكلاب. كلب واحد ظل يلاحق الفريسة، استجمعت قوتها وهجمت عليه كلبؤة شرسة فخاف وذهب بعيداً. استمرت الأم تسحب الجثة حتى أبعدتها عن الكلاب، وعادت تصرخ؛ آه يمه وارتمت عليه تحتضنه، ثم عادت تجر إبنها الي المنزل الذي يبعد حوالي ١٠٠٠ متر.

واصلت طوال الطريق في سحب بقايا الجثة والحبل ينخر في كتفها، غير مصدقة ما يحدث.. هل هذا فعلا ابني بدر؟! تنظر اليه تعود لتحتضنه تنادي عليه تتوسل اليه أن ينهض، ثم تعاود المسير. شريط حياته مر أمام عينيها كأنها لحظة يوم مولده وصرخته الأُولى. كيف حبا على يديه أول مرة.. خطواته الأُولى وكلمة ماما.. فرحتها لذهابه اول يوم للروضة. وتخرجه من الجامعة. وحبيبته الذي كان يكلمها بالسر. نظرت اليه تتوسله انهض يا بدر. أتعلم يا ولدي من اسماك بدر؟ (تصمت) كلا لست انا، لا لا ولا حتى والدك. إنها الممرضة حينما ولدتك والقت نظرها على وجهك قالت لي لقد أنجبت بدراً يا سيدتي، سبحان الخالق حتى انها دعت كل زميلاتها الممرضات ليشاهدن جمالك ووقتها قلنا سوف نسميك بدر. لقد كنت أعتزم ان ازوجك من حبيبتك، انهض يا ولدي انهض. أريد أن افرح بأولادك، ولكن اياك ان يناديني أحدهم بجدتي..

ضحكت ضحكة خفيفة ثم بدأ صوت يخترق راسها بأغنية فريد الأطرش "الحياة حلوة بس نفهمها". نفضت الصوت بعيداً وأجابت نفسها، ما هذا الجنون الذي حل برأسي، أجُر إبني مستشهداً وأُغني لفريد!
صارت الدماء تسيل من كتفها من أثر إطباق الحبل المشدود لثقل الجثة، ومع ذلك لم تكن تشعر بشيء.. استمرت بالمشي ولا زالت الشوارع خاليه وكأنها حواء في بداية الخلق وهي تجر ابنها هابيل الذي قتله أخاه قابيل. ولكن بدر قتلته إسرائيل. تذكرت بدر حينما كان كل صباح ينهض مبتسما مقبلاً جبينها وتداعبه مبتسمة، قبلني من خدي يا بدر. ويجيبها "هاي أحلي بوسة لأغلي أم". عادت أغنية الحياة حلوة تقتحم فكرها وتزاحمها في مصيبتها وطردتها بشده وأخذت تنظر اليه وتصرخ آه يمه.

اقتربت من منزلها ببضع خطوات وعادت أنغام الحياة حلوة بس نفهمها تسيطر على مخيلتها، صور بدر المتلاحقة وهي تضع له ساندويتشات المدرسة وتشتري له ملابس العيد ويوم نجاحه بالثانوية العامة وتوزيعها للحلوى على كل أهل الحي والأقارب وعادت صورة الكلاب في رأسها وهي تنهش في قدميه وعادت الأغنية تتردد في رأسها. صرخت بأعلى صوتها، آه يمه.. ركض زوجها تجاه الباب كانت جثة تجر جثة، شعرها مبعثر على وجهها تغطيها الدماء. ملابسها ممزقة عيناها ذابلتان. أفلت الحبل من يدها دون وعي وظلت تسير بالشارع تغني ببطيء الحياة حلوة بس نفهمها، نفهمها، نفهمها.

2024/5/14
علي ابو ياسين